مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا
مؤتمر الأئمة السابع عشر
هيوستن – أمريكا

تساؤلات منهجية حول
"فتنة الإلحاد"

أ.د/ صلاح الصاوي
الأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

"الأراء في هذا البحث تعبر عن رأي الباحث وليس بالضرورة عن رأي أمجا"
Opinions in this research are solely those of the author and do not represent AMJA.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

1. هل كان للجمود في الخطاب العقدي دور في تنامي فتنة الإلحاد؟..... 3
2. هل كان لتهميش الدارسات المتعلقة بالربوبية دور في تنامي فتنة الإلحاد؟..... 5
3. الإيمان بالربوبية مدخل إلى توحيد الألوهية 6
4. هل الإصرار على بعض القوالب التراثية وإن كان اصطلاحية! وتبديع من اقترب منها دور في تنامي فتنة الإلحاد!!..... 8
5. هل حدث تهميش للعقل لصالح النقل؟ 10
6. منزلة العقل ومجالات عمله 10
7. صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول 11
8. لا يأتي الأنبياء بمحالات العقود بل بمحارتها 11
9. مجالات العمل العقلي..... 11
10. جمع القرآن بين الأدلة العقلية والسمعية في بيانه لأصول الدين 12
10.1 الأساس الأول: العدم لا يخلق شيئًا: 13
10.2 الأساس الثاني: الفعل مرآة لقدرة فاعله وبعض صفاته: 13
10.3 الأساس الثالث: فاقد الشيء لا يعطيه: 13
11. الطريق الذي رسمه الإسلام للعقل في نظر العقائد 13
12. أزمة العقل البشري: 14

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد: فلا يخفى ما للمناهج الدراسية من دور جوهري في تشكيل وعي الأجيال وثقافة الناشئة، ومن ثم كان الاهتمام الكوني بها على شتى الأصعدة، سواء أكان ذلك من قبل المحبين أم من قبل الشانئين، ولكل وجهة هو موليها، والسؤال هل كان لسوء التناول لبعض قضايا الاعتقاد في المناهج الدراسية دور في بروز فتنة الإلحاد أو في تناميها؟

هذه محاولة لإلقاء الضوء على بعض الجوانب التي يظن أن مسيسة الصلة بهذا الأمر الجلل، ونسوقها في الأسئلة الآتية:

1. هل كان للجمود في الخطاب العقدي دور في تنامي فتنة الإلحاد؟

إذا ذكرت العقائد ذكرت عقيدة السلف، كمرفأ، وقارب نجاة، ومخرج من الفتنة! والسلف: هم أهل القرون الثلاثة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالخيرية في مثل قوله ﷺ: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"[1].

فهي ليست نسبة إلى شخص أو أشخاص، ولا إلى كيانات حزبية أو جماعات تنظيمية، بل هذه النسبة هي نسبةٌ إلى العصمة، ذلك لأن السلف الصالح لا يجتمعون على ضلالة، فإجماع السلف الصالح في أمور الاعتقاد حجة شرعية ملزمة لمن جاء بعدهم، وهو إجماع معصوم، ولا تجوز مخالفته، "فدين المسلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة نبيه وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة أصول معصومة والسلفية المنشودة هي سلفية المنهج؛ أي: العودة بأصول الفهم إلى الكتاب والسنة، وقواعد الفهم المعتبر لدى القرون الثلاثة الأولى؛ وذلك لنتمكن من خلال هذا المنهج من المواجهة السلفية المعاصرة لمشكلات حياتنا المتجددة.

فلا يقصد بالسلفية إذن الهروب من الزمان أو الهجرة من المكان، ولا مجرد الاجترار لبعض المفاهيم أو القضايا العقدية التي واجه بها سلفنا الصالح انحرافات عصرهم، وكانت فريضة الوقت يومئذ، وإغفال أو التخلي عن المعارك الطاحنة التي يدير الخصوم رحاها في المجتمعات المعاصرة، طمسًا لمعالم الإسلام، وإبادة لخضراء المسلمين.

فإذا كانت مشكلة خلق القرآن أو نفي بعض الصفات، وهي السمة البارزة لانحرافات الأمة في عصر من العصور، مع بقاء الإسلام دولة تعقد الرايات، وتجيش الجيوش لنشر الدعوة والجهاد في سبيل الله، أو على الأقل للدفاع عن بيضة المسلمين، والدفاع عن أرضهم وأعراضهم- فإن الإسلام كله اليوم موضع ريبة واتهام، فقد ضاعت إسلامية الراية، وإسلامية النظم، وإسلامية الأوضاع، في بعض المواقع ضياعًا جعل من مجرد التفكير في أن يكون الإسلام أساس الحكم والتوجيه، وشعار المعركة في بلاد المسلمين جريمة وخيانة عظمى، تعاقب عليه بعض قوانين هذه البلاد بالإعدام بتهمة التآمر على تغيير شكل النظام[2]!!

فليس إذن من السلفية في شيء الوقوف عند بعض المعارك التاريخية التي طويت صحفها واندثرت فتنتها، والتخلي عن المعارك المعاصرة التي أجلب علينا العدو فيها بخيله ورجله، وحشد لها كل ما يملك من عتاد وعدة، لمجرد أن سلفنا الصالح بسطوا القول في هذه ولم يبسطوه في تلك! ولا نعني بهذا التخلي المطلق عن هذه القضايا، وإنما التناول المجمل لها بما يكفل بيان الحق من ناحية، وتجنب إحياء الفتن القديمة وتجديد المعارك المندثرة من ناحية أخرى، ثم التفرغ لمواجهة فتنة العصر ومشاكله المتجددة.

إن السلفية الحقة لا تقبل أن تستهدف الدعوة، في بعض المواقع، تحرير العقائد من شرك الأموات والأوثان، وتضرب الذكر صفحًا عن شرك الأحياء والأوضاع والنظم المعاصرة! وهو الذي لا يقل خطرًا عن شرك الأصنام في الجاهلية الأولى!!

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (2652) واللفظ له، ومسلم (2533).
(2) انظر: بحث الاتجاه السلفي الحديث بين التأصيل والمعاصرة، للدكتور راجح الكردي، منشور ضمن ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر (227-256).

ولا تقبل أن تُعْلَنَ الحربُ على التشبيه أو التعطيل في بعض الصفات، ولا تُعْلَنَ على تعطيل الشريعة وتحكيم القوانين الوضعية، والفصل بين الدين والدولة، والأولى معركة في غير ميدان، لا يملك الخصم فيها سيفًا ولا سنانًا، والثانية أتون مستعر يلتهم الأصول والفروع، ويكاد أن يأتي على بناء الإسلام كله من القواعد.

وهي بهذا لا تنكر خطورة التشبيه أو التعطيل، ولا تدعو -معاذ الله- إلى إقرار هذا الزيغ، وهي التي قد نذرت نفسها لدحضه عبر التاريخ، ولكنها يجب أن تؤكد أن الانتساب إليها لا يتحقق بمجرد اجترار هذه القضايا، والإلحاح في عرضها وتكرارها فحسب، مع إغفال التناول السلفي لمشكلاتنا المعاصرة؛ من التحاكم في الدماء والأموال والأعراض إلى غير ما أنـزل الله، وتكريس الفصل بين الدين والحياة، واتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وإشاعة الفساد والفاحشة في بلاد الإسلام، إلى غير ذلك من مداخل الضلال والفتنة في مجتمعاتنا المعاصرة.

2. هل كان لتهميش الدارسات المتعلقة بالربوبية دور في تنامي فتنة الإلحاد؟

توحيد الربوبية هو: توحيد الله بأفعاله، واعتقاد تفرده بالخلق والملك والرزق والتدبير، فهو وحده الذي يخلق الخلق ويدبر الأمر، وهو وحده الذي يرسل الرسل ويشرع الشرائع؛ ليحق الحق بكلماته، ويقيم العدل بين عباده شرعاً وقدراً، إلى غير ذلك مما لا يحصيه العد ولا يحيط به القول.

قال تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}[3]، أي: له الملك وله التصرف، لا راد لقضائه ولا معقب على حكمه، لم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل. وقال تعالى: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[4]، فهو الذي خلق الخلق، وقدر القدر، وجبل الخليقة على ما أراد، وهو الذي أعطى كل خلق ما يصلحه، وأعطى كل شيء ما ينبغي له، وهيأ كل شيء على ذلك.

وهذا التوحيد -توحيد الربوبية- حق لا ريب فيه، وإن القلوب لمفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، وإن كان هذا لا يعني أنه لم يقع شرك في الربوبية قط، بل قد وقع الشرك في بعض الربوبية لدى بعض الناس، كاعتقاد بعض المشركين أن ثم خالقاً خلق بعض العالم كما هو الحال عند الثنوية[5] والمانوية[6]، وبعض الفلاسفة وغيرهم ممن يثبتون أمورًا محدثة بغير إحداث الله لها، أو اعتقاد بعضهم في آلهتهم شيئاً من النفع والضر لم يخلقه الله، كما قال قوم هود لنبيهم: {إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[7]، وقد بيّن القرآن بطلانه كما في قوله تعالى: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}[8]. كما أن هذا لا يعني أنهم قد أتوا بتوحيد الربوبية على النحو الذي جاءت به الرسل، إذ لو كان كذلك لقادهم حتمًا إلى عبادة

(3) سورة الأعراف، من الآية [54].
(4) سورة طه، من الآية [50].
(5) هؤلاء هم أصحاب الاثنين الأزليين: يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه. وهؤلاء قالوا بتساويها في القدم، واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والحيز والمكان والأجناس والأبدان والأرواح. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (285/1).
(6) أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية. وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني (290/1).
(7) سورة هود، الآية [54].
(8) سورة المؤمنون، الآية [91].

الله وحده، ولكنه إيمان منقوص ومدخول، لم يتواطأ فيه اطمئنان الجنان مع إقرار اللسان، ولم يأتلف فيه عمل القلب مع قول القلب، ولم يخل من شوائب من الشرك كما سبق.

ولكن هذا النوع من التوحيد لا يكفي وحده للبراءة من الشرك، فإنه لم يذهب إلى نقيضه بالكلية طائفة معروفة من بني آدم، ولم يُعْرَفْ عن أحد من الطوائف أنه قال: إن للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال:

- فالثنوية من المجوس، والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما: متفقون على أن النور خير من الظلمة، وأنه الإله المحمود، وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة: هل هي قديمة أو محدثة؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين.
- ومشركو العرب وغيرهم من الأمم كانوا يقرون على الجملة بالخلق والرزق والتدبير، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}(9)، وقال تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}(10).

ولقد ظل الإقرار بالربوبية مركوزًا في فطرة الإنسان عبر التاريخ البشري، ولهذا لم يكن رسل الله بحاجة إلى أن يخوضوا معركة كبرى لإثباته لفرط وضوحه وبداهته، بل كانت تكفي الإشارة إليه والتنبيه عليه، ثم الانطلاق منه بعد ذلك لتقرير بقية حقائق التوحيد والإيمان.

ونحن لا ننكر أن شذاذًا في تاريخ الأمم تنكروا لهذه الحقيقة وجحدوا بها، ولكنهم كانوا من الندرة والقلة، بحيث لا يشكلون ظاهرة عامة تتنزل من أجلها الكتب وتبعث من أجلها الرسل، ومن أجل ذلك خلت كتب السلف الصالح من التناول المفصل لهذه القضية، وإفرادها بمؤلفات خاصة، فلم يكن للملاحدة من الوجود الفكري أو السياسي ما يحفز إلى التصدي والمواجهة.

ولكن شذاذ الأمس قد أصبحوا في هذا الزمن وإلى وقت قريب أمة قائمة يشيدون على الإلحاد الدول، ويبنون على أساسه الحضارات، بل ويقيمون له المعاهد العلمية التي تعمل على تأصيل الإلحاد، وإعطائه صبغة العلم والتقدمية! وإن كان نجمهم ككيان سياسي قد أخذ مؤخرًا في الأفول، ولكنه بدأ في الصعود مجددا بعد سلسلة الانكسارات التي منيت بها الأمة في أعقاب انكسار انتفاضاتها الشعبية! ومن هنا مست الحاجة إلى أن يهتم المسلمون بإبراز الآيات الدالة على وجوده -جل وعلا- والتي تبرهن على كثير من أسمائه وصفاته، دحضًا لشبه المبطلين، وقيامًا بحجة الله على العالمين، وحماية للأمة من أن يصيبها رذاذ هذا الإلحاد الفاجر، واستجابة لأمر الله لهم بالتدبر في ملكوت السماوات والأرض.

3. الإيمان بالربوبية مدخل إلى توحيد الألوهية

لا يعني القول بأن توحيد الربوبية مما أقر به المشركون الأوائل أن نضرب الذكر عن دراسته صفحًا، أو أن تتجاوزه الدراسات الأكاديمية والمنتديات الدعوية، فإن جل ما ورد في القرآن الكريم متعلقًا

(9) سورة العنكبوت، الآية [61].
(10) سورة يونس، الآية [31].

بالتوحيد إنما كان في تقرير توحيد الربوبية؛ ليؤسس عليه الدعوة إلى عبادة الله وحده، فلن يثبت توحيد الألوهية إلا على قاعدة مكينة صلبة من توحيد الربوبية، فإن من يرسخ يقينه بتفرد الله بالخلق والملك والرزق والتدبير لابد أن يتوجه بدعائه وعبادته إليه وحده، وإلا فهو التناقض أو الجنون!

وتأمل قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}(11)، فقد جعل من تفرد الله بالخلق والرزق دليلاً على تفرده بالألوهية واستحقاقه وحده للعبادة. وتأمل قولـه تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(12).

وقوله تعالى في سورة النمل: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}(13). فقد جعل من مظاهر تفرده بالربوبية في الخلق والرزق والتدبير دليلاً على تفرده بالألوهية واستحقاقه وحده للعبادة.

ولو تدبرت في جميع الآيات التي وردت في إقرار المشركين بالربوبية لوجدتها تجعل من هذا الإقرار مدخلاً للدعوة إلى توحيد الألوهية وبرهاناً عليه، قال تعالى: {قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}(14).

وقال تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}(15)، فقد جعل من هذه الإقرارات مدخلاً لدعوتهم إلى نفي التشريك في باب الألوهية.

ولو تدبرت أيضًا في جميع الآيات التي نَعَتْ على المشركين عبادة الأوثان لوجدت احتجاجها عليهم بأن هذه الأوثان لا تملك شيئًا من مظاهر الربوبية، فهي لا تخلق ولا ترزق ولا تضر ولا تنفع، ولا تملك تدبيرًا ولا تأثيرًا، فكيف يعبد من هذا حاله؟!

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}(16).

---

(11) سورة فاطر، الآية [3].
(12) سورة غافر، الآيتان [64-65].
(13) سورة النمل، الآيات [60 - 63].
(14) سورة المؤمنون، الآيات [84 - 91]
(15) سورة يونس، الآية [31].
(16) سورة النحل، الآيتان [20 - 22].

وقال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}[17].

وقال تعالى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ}[18].

وقال تعالى: {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[19]. فقد جعل من عجز هذه الآلهة المزعومة عن الخلق والرزق والتدبير دليلاً على بطلان عبادتها من دون الله.

ومن هنا يجب أن تعنى الدراسات العلمية بإحياء فريضة النظر في ملكوت السماوات والأرض، والتدبر في مظاهر ربوبية الله لهذا الكون؛ فإنها تحيي الإيمان وتجدد ربيعه في القلب، وتسوق صاحبها سوقًا إلى الإخبات[20] لله جلا وعلا وإفراده وحده بالعبادة.

وأذكر أنه عندما أنشئت هيئة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة تندر من جهودها وأبحاثها بعض المتابعين وقال إن غاية ما تنشده الهيئة أن تقرر توحيد المشركين!! وهكذا بكلمة واحدة يهيلون التراب على كل جهود الهيئة في نصرة الدين وتحقيق إعجاز هذا الكتاب المبين.

4. هل الإصرار على بعض القوالب التراثية وإن كان اصطلاحية! وتبديع من اقترب منها دور في تنامي فتنة الإلحاد!!

إذا كان الأصل في مسائل الاعتقاد أنها قطعية ثبوتا ودلالة، وأنها من الثوابت المحكمات، التي لا تتطرق إليها الظنون ولا الاحتمالات؛ لا سيما عقيدة التوحيد لأنها أعظم حقيقة في الإسلام، بل أعظم حقيقة في هذا الوجود! فهي الحقيقة التي حملها أنبياء الله جميعًا على مدار التاريخ، منذ آدم إلى محمد ﷺ بلا نسخ ولا تبديل؟! فإن بعض التفاصيل والجزئيات المتعلقة بها قد تكون اجتهادية موضعًا لتفاوت الإفهام؛ إما لأنها بطبيعتها فروعيه، أو للمنازعة في تحقيق مناطها في واقع معين.

ومن ذلك على سبيل المثال التقسيم المعهود للتوحيد إلى توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات: فإن هذا التقسيم اصطلاحي، الهدف منه تقريب القضية وتنظيم دراستها، كما اصطلح أهل العلم على أسماء اصطلاحية للعلوم؛ كعلم أصول الفقه، وعلم مصطلح الحديث، وعلم النحو والصرف، وعلم البلاغة ... ونحوه، وكما اصطلحوا داخل العلم الواحد على تعريفات وأسماء اصطلاحية لكثير من مباحثه، فاصطلحوا في علم الأصول على المصالح المرسلة، والاستحسان، والاستصحاب، وسد الذرائع، واصطلحوا في الدلالة على دلالة العبارة، ودلالة الإشارة، ودلالة النص، ودلالة الاقتضاء، ومفهوم المخالفة... ونحوه، واصطلحوا في مفهوم المخالفة على مفهوم اللقب، ومفهوم الوصف، ومفهوم الشرط، ومفهوم الغاية، ومفهوم العدد، واصطلحوا في دلالة الألفاظ على الخاص والعام، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين... ونحوه.

(17) سورة مريم، الآيتان [41- 42].
(18) سورة الأعراف، الآيتان [191-192].
(19) سورة العنكبوت، الآية [17].
(20) انظر: منزلة الإخبات في مدارج السالكين (209-217).

وعلى هذا فلا مُشاحة في الاصطلاح[21] إذا بقي مضمون التوحيد ذاته موضع قبول واتفاق من الناس كافة، فإذا اتفق الناس على توحيد الله تعالى بأفعاله خلقًا وملكًا ورزقًا وتدبيرًا، وتوحيد الله تعالى بأفعال عباده صلاةً ونسكًا ودعاءً واستغاثةً... إلخ، وتوحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، فقد انحلت العقدة وزال الخلاف، وبقي ما وراء ذلك من الاصطلاحات في إطار النظر والمدارسة.

لقد رأينا للسلف تقسيمًا آخر للتوحيد: التوحيد العلمي وأدخلوا فيه توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، والتوحيد العملي وقصروه على توحيد الألوهية، وهذه طريقة أخرى في عرض المضمون الواحد، ولا حرج في ذلك ولا غضاضة.

وقد تشيع الداروينية أو الإلحاد أو العلمانية في مجتمع من المجتمعات، فيصطلح الناس على تقسيم الحديث في الربوبية إلى قسمين: توحيد الخالقية، وتوحيد الحاكمية، إبرازًا لخرق الأولى لتوحيد الربوبية في جانب الخلق عندما يتبنى دعاتها القول بنظرية الخلق الذاتي أو التلقائي، وإبرازًا لخرق الثانية للربوبية في جانب الأمر عندما يتبنى دعاتها الفصل بين الدين والحياة، أو الكفر بمرجعية الوحي في علاقة الدين بالدولة، وذلك تأسيسًا على أن جماع الربوبية هو الخلق والأمر، وانطلاقًا من مثل قوله تعالى: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}[22]، وقوله تعالى: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[23].

والأصل في ذلك كله أن التقاسيم اصطلاحية لا يدخلها الابتداع، وأن العبرة كما يقولون: "بالمقاصد والمعاني وليس بالألفاظ والمباني"[24]. هذا؛ وإن كان تتابع أهل العلم على استخدام هذا التقسيم، واستقراره عبر قرون طويلة، يجعله جزءًا من التراث السلفي، فينبغي قبوله على ألا يكون في ذاته معقدَ ولاءٍ وبراء.

فهل كان لتأخر الدراسات العقدية التي تعنى بفتن العصر ومستجداته العقدية دور في تنامي هذه الفتنة وتطاير شررها؟! لقد اهتمت بعض الجامعات السلفية بهذه الدراسات، وضمنتها أطروحاتها العلمية[25]

---

(21) أن الخلاف إذا كان واقعًا في الأمور الاصطلاحية فإنه لا ينبني عليه حكمٌ، ولا اعتبارَ به. وإنما يظهر إعمال هذه القاعدة فيما لو حصل الاتفاق على المعنى واختلفوا في التسمية أو في اللفظ، فلا بُدَّ إذًا من تقدير تتمَّة لهذه القاعدة وهي: (بعد الاتفاق على المعنى).
ثم إن هذه القاعدة ليست على إطلاقها، بل هناك شروط لا بُدَّ من اعتبارها وتقييد القاعدة بها، وهي أربعة شروط:
1- وجود مناسبة مُعتَبَرة تجمع بين الاصطلاح ومعناه.
2- ألاَّ يكون في هذا الاصطلاح مخالفةٌ للوضع اللغوي أو العرف العام.
3- ألاَّ يكون في هذا الاصطلاح مخالفةٌ لشيء من أحكام الشريعة.
4- ألاَّ يترتَّب على هذا الاصطلاح الوقوع في مفسدة الخلط بين المصطلحات.
والقدر الجامع لهذه الشروط الأربعة هو: ألا يُفضِي هذا الاصطلاح إلى مفسدة، وهذه المفسدة قد تكون مفسدة لغوية، أو مفسدة عرفية، أو مفسدة شرعية، أو مفسدة اصطلاحية. انظر: بحث "قاعدة لا مشاحَّة في الاصطلاح دراسة أصولية تطبيقية"، د. محمد حسين الجيزاني، ضمن الأبحاث الأصولية المحكمة والمعروضة في مجلة الأصول والنوازل.

(22) سورة الأعراف، من الآية [54].
(23) سورة طه، الآية [50].
(24) انظر: شرح القواعد الفقهية، للزرقا (55/1).
(25) مثل: "الآثار الواردة عن السلف في توحيد الربوبية والأسماء والصفات في تفسير الطبري"، إبراهيم بن عبد الله الحماد، رسالة دكتوراه: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، و"الألفاظ والمصطلحات المتعلقة بتوحيد الربوبية جمعا ودراسة"، آمال بنت عبد العزيز العمرو، رسالة دكتوراه: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، و"الآيات الدالة على الله وفق نهج القرآن ومذهب السلف"، إبراهيم محسن آل عيسى، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، و"تسخير ما في الكون للإنسان على ضوء سورة النحل وآثار ذلك في توحيد الخالق عز وجل"، زهرية محمد صالح القاداني، رسالة ماجستير: جامعة أم القرى، و"توحيد الربوبية بين السلف ومخالفيهم من الفرق الإسلامية"، سعيد بن علي العمري، رسالة ماجستير: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، و"الشبهات النقلية لمخالفي أهل السنة والجماعة في توحيد المعرفة والإثبات عرضا

ولكن لعل الاهتمام بذلك جاء متأخرًا، ولم يكن على مستوى من الشمول والاستنفار العام بما يكافئ خطر هذه الفتنة ويكفي لوأدها في مهدها.

5. هل حدث تهميش للعقل لصالح النقل؟

لقد استفاض عن السلف ذم علم الكلام وشن الغارة على المتكلمين، حتى قال الشافعي -رحمه الله-: "حُكمي في أهل الكلام: أن يُضرَبوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبَلَ على الكلام"[26].

ولكن هذا لا يعني عقد خصومة بين النقل والعقل، أو صحة المقابلة بين الدليل العقلي والدليل الشرعي؟ إن المقابلة بين الدليل العقلي والدليل الشرعي مقابلة مغلوطة، بل المقابلة الصحيحة تكون بين الدليل الشرعي، والدليل البدعي، على أن يشتمل الدليل الشرعي: الأدلة السمعية والأدلة العقلية معًا.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: " الشرعي قد يكون سمعيًا وقد يكون عقليًا، فإن كون الدليل شرعيًا يراد به كون الشرع أثبته ودل عليه، ويراد به كون الشرع أباحه وأذن فيه، فإذا أريد بالشرعي ما أثبته الشرع، فإما أن يكون معلومًا بالعقل أيضًا، ولكن الشرع نبه عليه ودل عليه، فيكون شرعيًا عقليًا.

وهذا كالأدلة التي نبه الله تعالى عليها في كتابه العزيز، من الأمثال المضروبة وغيرها الدالة على توحيده وصدق رسله، وإثبات صفاته وعلى المعاد، فتلك كلها أدلة عقلية يعلم صحتها بالعقل، وهي براهين ومقاييس عقلية، وهي مع ذلك شرعية، وإما أن يكون الدليل الشرعي لا يعلم إلا بمجرد خبر الصادق، فإنه إذا أخبر بما لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شرعيًا سمعيًا"[27].

6. منزلة العقل ومجالات عمله

للعقل في الإسلام منزلة علية، فقد جعله الله تعالى سببًا للتكليف ومناطاً للمسؤولية؛ وحثَّ على استعماله فيما خُلق له وفي المجال الذي يستطيعه، ورسم له المنهج الصحيح للعمل والتفكُّر، وأحال عليه في القضايا الكبرى الرئيسية: كمعرفة الله تعالى ووحدانيته، وصحة النبوة، والبعث بعد الموت؛ فإنَّ إدراك هذه القضايا إدراكًا كليًا عامًا إنما يكون بالعقل، وإن كان هذا لا يعني أن نجعل العقل حاكمًا على مقررات الدين؛ فإن العقل من شأنه أن يتلقى عن الوحي، وأن يفهم ويدرك؛ فإن للعقول حدًا تنتهي إليه لا سبيل لها إلى مجاوزته وهو كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس مستقلًّا بذلك، لكنه غريزة في النفس وقوة فيها، بمنـزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أمورًا حيوانية، قد يكون فيها محبة ووجد وذوق، كما قد يحصل

ونقدًا"، علي ذويب العنزي، رسالة ماجستير: جامعة أم القرى، و"صلة الله بالكون في التصوف الفلسفي دراسة ونقد"، سعيد عقيل سراج سعيد، رسالة دكتوراه: جامعة أم القرى، و"قلب الأدلة على الطوائف المخالفة في توحيد المعرفة والإثبات"، تميم بن عبد العزيز القاضي، رسالة ماجستير : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، و"المصطلحات الكلامية في أفعال الله تعالى عرض ونقد"، أحمد محمد طاهر عمر، رسالة ماجستير : جامعة أم القرى.

(26) انظر: مناقب الشافعي، للبيهقي (95/1).

(27) درء تعارض العقل والنقل (198/1-199).

للبهيمة، فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه»[28].

7. صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول

فدور العقل مع النقل كدور العامي مع المجتهد، بل هو دونه بكثير؛ لأن العامي يمكن أن يصبح عالما بالتعلم، ولا يمكن للعالم أن يكون نبيًا أو رسولًا بحال من الأحوال، فلا يصح تقديم العقل على النقل، فيما يوهم التعارض، بدعوى أن العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل، والعقل أصل النقل فإذا عارضه قدمنا العقل. فإن هذا لا يكون قط، بل إذا كان النقل صحيحًا فالذي يدعي أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر ذلك، وإذا كان النقل غير صحيح فإنه لا يصلح للمعارضة.

8. لا يأتي الأنبياء بمحالات العقود بل بمحارتها

والأنبياء -عليهم السلام- قد يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته لا بما يعلم العقل بطلانه فيخبرون بمحارات العقول لا بمُحالاتها، ومن تأمَّل هذا أدرك الفرق بين دين التثليث المحرَّف، والذي يقضي العقل ببطلانه وباستحالة أنه من عند الله، لكونه مُشتملاً على المُحالات العقليَّة، ودين الإسلام الحقِّ الذي أخبَر فيه الله ورسوله بمُحارات العقول، الذي لم يتضمن قط ما يقضي العقل باستحالته، ولكنه يتضمن ما يَعجِز العقلُ عن معرفته، ككيفيَّة نزول الربِّ المَبنيَّة على استحالة معرفة كيفيَّة ذاته ـ سبحانه- ففارِقٌ كبير بين عدم إدراك العقل لبعض المُغيَّبات، أو لكيفيَّة صفات الله الفعليَّة، وبين مُباينة الدين للمعقول، ومُناقضته للفِطَر، كما في ديانة التثليث المُحرَّفة[29].

9. مجالات العمل العقلي

لتحديد مجال الاستدلال العقلي يمكن تقسيم العلوم التي يدركها العقل إلى ثلاثة أقسام:

1) **العلوم الضرورية**: وهي التي لا يمكن التشكيك فيها، إذ أنها تلزم جميع العقلاء ولا تنفك عنهم، كعلم الإنسان بوجوده، وأن الاثنين أكثر من الواحد، واستحالة الجمع بين النقيضين، أو رفعهما، إلى غير ذلك مما يسمى بقوانين العقل الضرورية.

2) **العلوم النظرية:** هي التي تكتسب بالنظر والاستدلال، وهذا النظر لابد في تحصيله من علم ضروري يستند إليه، حتى يعرف وجه الصواب فيه، وهذا القسم تدخل فيه كثير من العلوم، كالطبيعيات والرياضيات والطب والصناعات وغيرها، وهو نوعان: نوع يتمحض العمل فيه للعقل، وهذه عادة تكون في العلوم المفضولة، كالصناعة والزراعة، والآخر يكون بالنظر في أدلة الشرع، وبذل الوسع لإقامة العبودية، قال الإمام الشافعي في قوله تعالى: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}[30] قال: "فخلق لهم العلامات، ونصب لهم المسجد الحرام، وأمرهم أن يتوجهوا إليه، وإنما توجههم إليه بالعلامات التي خلق لهم، والعقول التي ركبها فيهم، التي استدلوا بها على معرفة العلامات، وكل هذا بيان ونعمة منه جل ثناؤه"[31].

(28) مجموع الفتاوى (338/25).
(29) انظر: الله جَلَّ جلالُهُ واحد أم ثلاثة؟، المؤلف: د. منقذ بن محمود السقار (14-17).
(30) سورة النحل، الآية [16].
(31) الرسالة، للشافعي (38).

3) **العلوم الإنسانية**: وهذا القسم لا يعلم بواسطة العقل: إلا أنه يُعلَّمه، بأن يجعل له طريق للعلم به، وذلك كالغيبيات، سواء كانت من قبيل ما يعتاده علم العبد: كعلمه بما تحت رجليه، وعلمه بالبلد القاصي عنه، الذي لم يتقدم له به عهد، أو لا: كعلمه بما في اليوم الآخر من بعث وحساب وجزاء وتفاصيل ذلك، فهذا لا يعلم إلا عن طريق الخبر، ويدخل في ذلك كثير من مسائل الاعتقاد ولا سيما التفصيلية منها.

هذا وإن للعقل حدًا ينتهي إليه كما أن للبصر حدًا ينتهي إليه، فالعقل في الإنسان كغيره من الصفات الكمالية، فهي وإن كانت كمالاً في حق الإنسان، إلا أن لها حدودًا لا تتجاوزها، وأقدارًا لا تتخطاها، فالإنسان ذاته مخلوق، وصفاته كذلك يعتريها ما يعتري المخلوق من القوة والضعف والخور والوجود والعدم. والعقل جعل الله له حدًا -في إدراكه للأشياء- ينتهي إليه، لا يتعداه، فلم يجعل له سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كان العقل يدرك كل مطلوب لاستغنى الخلق به عن الوحي والنبوات، والله تعالى يقول: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}[32]، فالعقل ليس بمعصوم بل هو آلة إدراكية محدودة، قال الشافعي: "إن للعقل حدًا ينتهي إليه كما أن للبصر حدا ينتهي إليه"[33]، "وليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل، ولكنه توجيه لهذا العقل أن يعمل في حدوده، وفي مجاله الذي يدركه. فلا جدوى من الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه، لأنه لا يملك وسائل إدراكه"[34]، وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، وهو أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد؛ بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالما، ولا يمكن العالم أن يكون نبيا رسولا!"[35].

10. جمع القرآن بين الأدلة العقلية والسمعية في بيانه لأصول الدين

لم يكن بيان القرآن الكريم لأصول الدين مقصورًا على مجرد الخبر عن وجود الله تعالى ووحدانيته وسائر أركان الإيمان، وإنما أقام البراهين العقلية التي بها تُعْلَم العلوم الإلهيَّة؛ فكان منهجه ومنهج جميع الأنبياء -عليهم السلام- الجمع بين الأدلة العقلية والسمعية (الشرعية) فالعلوم الدينية ثلاثة أقسام:

[1] منها ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية، وذلك كثبوت النبوة وصدق الخبر، وأحسن هذه الأدلة ما بينه القرآن وأرشد إليه.

[2] ومنها ما لا يعلم إلا بالأدلة السمعية، وذلك كتفاصيل الأمور الإلهية وتفاصيل العبادات، وذلك إنما يكون بطريق خبر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- المجرد، والواجب على العقل والحالة كذلك التسليم لما جاء به السمع، حتى لا يبقى العقل حائرًا.

[3] ومنها ما يعلم بالسمع والعقل، وذلك مثل البعث والحساب؛ فإن العقل يمنع أن تكون الحياة عبثًا؛ وأن يُترك الإنسان سدىً دون تكليف ولا محاسبة ولا جزاء يفرَّق فيه بين المؤمن والكافر، وبين التقي والعاصي الفاجر، فهذه دلالة عقلية تتعانق مع الدلالة النقلية على البعث، فبالدلالة العقلية المنطقية أقام القرآن الكريم أدلة الوحدانية، كقوله تعالى: {أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ

(32) سورة الإسراء، الآية [15].
(33) توالي التأسيس بمعالي إدريس، لابن حجر (165).
(34) علم التوحيد عند أهل السنة والجماعة، المبادئ والمقدمات (215).
(35) شرح الطحاوية، ابن أبي العز (٢٣١/1).

فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[36] أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله ندًا وعبدوها معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السماوات الأرض، وقد أقام هذه الدلالة على ثلاثة أسس:

10.1 الأساس الأول: العدم لا يخلق شيئًا:

وهذه ضرورة عقلية وحقيقة شرعية، شهدت بها بداهة العقول، وأثبتها كتاب رب العالمين، وكيف يمكن لعاقل أن يجحد هذه الحقيقة وقد شهد بها حذاؤه الذي ينتعله، وثوبه الذي يلبسه، وسيارته التي تقله، والمظلة التي تقيه حر الشمس، بل وطعامه وشرابه وكل شيء حوله؟!

10.2 الأساس الثاني: الفعل مرآة لقدرة فاعله وبعض صفاته:

وقد دلنا القرآن الكريم على هذا الأساس العقلي، فحثنا على النظر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء؛ لكي نتعرف من خلال هذا النظر على كثير من صفات الخالق الحكيم، جل وعلا.

10.3 الأساس الثالث: فاقد الشيء لا يعطيه:

وهذه ضرورة عقلية شهد بها العقل، ودلت عليها النصوص الشرعية، فكما لا يعقل أن ينسب إلى الأخرس فصاحة اللسان، ولا إلى جاهل أمي أنه قام بإطلاق مركبة فضائية لغزو الفضاء الخارجي، لا يعقل أن ينسب إلى حجارة صماء القدرة على الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وإيصال النفع والضر إلى من تشاء، وبالدلالة العقلية المنطقية أقام القرآن الكريم أدلة النبوات، حيث خاطب العقلَ، ووجّهه إلى معرفة صدق النبيّ وعصمة القرآن، وأنه هو الوحي المنزَّه عن الخطأ والاختلاف، فقال الله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }[37]، ولهذا يقول أهل العلم: دلالة القرآن على صدق محمد ﷺ من ثلاثة أوجه: بلاغته، وإخباره عن الغيوب، وسلامته عن الاختلاف، وهذا هو المذكور في آية النساء السابقة، فسلامة القرآن من الاختلاف والتناقض، مع سلامته في الأسلوب الذي يجري على نسق واحد، مع إخباره عن الغيوب التي ما كان يعلمها أحد قبل نزوله، دليلٌ عقليٌّ على أنه من عند الله تعالى؛ فلو كان من عند غير الله لظهر فيه ذلك التفاوت.

يقول الإمام الغزالي: "أشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل؛ فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل، فلا هو تصرَّف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد"[38].

11. الطريق الذي رسمه الإسلام للعقل في نظر العقائد

(36) سورة الأنبياء، الآيتان [21-22].
(37) سورة النساء، الآية [82].
(38) المستصفى، للغزالي (4).

لقد بيَّن الإسلام للعقل الطريقَ الذي ينبغي أن يسير فيه حين يريد النظر في مسألة بعينها من المسائل؛ ولما كانت الطرائق مختلفة والأساليب متعددة؛ ولكل مسألة من المسائل ما يناسبها من طرائق النظر وأساليب الفكر.

فإذا كان الحديث عن الألوهية، فإن للعقل طريقين:

أحدهما: التدبر في آيات الله في الأنفس والآفاق، ليستنتج من ذلك أن لها موجداً، ثم ينظر في تناسق هذا الكون وانسجامِه ليعلم أن موجده واحد عالم حكيم خبير.

والثاني: أن ينصت إلى هذا الإله الذي آمن به حينما يتحدث عما يجب وعما يجوز وما يستحيل في حقه من أسماء وصفات، أما حين يكون الحديث في مجال النبوة -مثلاً- فإن الإسلام يوجِّه العقلَ لإثبات دعوى النبوة من جهات ثلاث:

الأولى: النظر في تاريخ مدعي النبوة، {فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[39].

والثانية: النظر فيما جاء به من العقائد والشرائع.

والثالثة: النظر أن ينظر فيما ساقه من الخوارق والمعجزات.

12. أزمة العقل البشري:

لقد ضلّت بالأمم الغابرة السّبل، وتاهت في دياجير ظلمات الفكر، يبتغون الوصول إلى الحق واليقين، فمنهم من جنح ناحية الحس يصدق بمعطياته، ويخضع لإرشاداته، معرضًا عما سواه من أدلّة، متهمًا إيّاها بالقصور والخداع، وقد تجلّى ذلك فيما يُسَمّى بالنزعة الحسية، ومنهم من جنح ناحية العقل، فحكمه في أمره كله، حتى زعم بعضهم: أن الوجود الحقيقي، هو ما يسميه بعالم المثل، ومنهم من جعل الوجود المادي فرعًا عن الوجود الفكري، وهكذا كان العالم الأوربي يتخبّط باحثًا عن وسيلة للمعرفة الحقّة، تصل به إلى الحق واليقين؛ فنشأت المذاهب الفلسفية المتعدّدة، والمتعارضة، من غير أن يقعوا على طريقة سواء[40].

أما الإسلام فقد اعتمد في الوصول إلى المعرفة طريقين اثنين:

الأول: طريق الوحي وهو الخبر الصادق عن الله تعالى، فكل ما جاء منه تعالى فهو الحق واليقين، ويطابق الأمر في نفسه.

والثاني: طريق التجربة التي تجمع بين الحسّ والعقل، ومن هنا تظهر وسطية الإسلام في جمعه بين الحس والعقل في الوصول إلى المعرفة الصادقة؛ حيث التقت عنده محاسن المذاهب الفلسفية خالصة من كل كدر.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الطريقة من طرق المعرفة، كما في قوله تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }[41]، فبالسير

(39) سورة يونس، الآية [16].
(40) مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن (66-67).
(41) سورة العنكبوت، الآية [20].

في الأرض تتكوّن الصور الحسية لآثار السابقين، من خراب الديار، ودروس العمار، بعد أن كانوا أكثر قوة وجمعًا، وهذا هو عطاء الحسّ، ثم تأتي مهمّة العقل، وذلك بالنظر في هذا العطاء الحسي، فيفحصه مرتبًا له، ورابطًا لأجزائه، بعضها ببعض، يقيس الغائب على الشاهد ويلحق الشيء بنظيره، والفرع بأصله، والملزوم بلازمه، إلى غير ذلك من الأعمال العقلية؛ ثم يخرج بالنتيجة، وهي صلاح الدار الآخرة، وتقديمها على الدار الفانية.

وأيضًا أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى وسائل المعرفة، وهي السمع والبصر والفؤاد، مادحًا المتعاطين لها، الواقفين عند أحكامها، وذامًّا المعرضين عن ذلك، مشبهًا لهم بالأنعام، كما قال تعالى: {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}(42).

وصفوة القول أنَّ نصوص الكتاب والسنة غنيَّة بالأدلَّة العقليَّة اليقينيَّة الدالة على أصول الاعتقاد ومسائله، خلافًا لِمَن زعَم أنها مجرَّد أدلَّة سمعيَّة خطابية تحتاج إلى براهين خارجيَّة، وأنَّ كمال الدين وتبليغَ الرسالة مُستلزمان بيان دلائل الاعتقاد كاستلزامهما بيان مسائله، وأنَّه ما من أصلٍ من الأصول الاعتقاد أو مسألةٍ من مسائله يمكن الاستدلال عليها عقلاً إلاَّ وفي النقل التنبيهُ على ذلك، عَلِمَه مَن عَلِمَه، وجَهِلَه مَن جَهِلَه، وأنَّ الدليل الشرعي لا يُقابِل العقلي، بل هو مشتملٌ عليه، إنما يُقابِل البدعي، ويمكن المقابلة بين الدليل العقلي والدليل السمعي، لكن لا يوجد دليلٌ شرعي سمعي محض، وأن الدلائل السمعية تستند عقلاً إلى دلائل النبوَّة.

وأنَّ حصر الدلالات الشرعية في الطُّرُق السمعية خطأ بين، وهو من أعظم أسباب تقديم العقل على النقل عند الخلَف، وأنَّ المنهاج الشرعي في الاستدلال العقلي على العقائد مُغايِرٌ تمامًا للمناهج البدعيَّة، وله خصائصه ومسالكه التي تُميِّزه عنها، وأنَّ منهج أهل السنة والجماعة في باب الاستدلال العقلي وسطٌ بين المفْرِطين من المتكلمين ومَنْ تأثَّر بهم، والمفرِّطين من غلاة المتصوفة وأهل التقليد ومَن وافقهم، وأنَّ النظر العقلي على الوجه الشرعي قد يكون واجبًا عند فَساد الفطرة بشُبهةٍ لا تزولُ إلا به، وأن صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول، فهل كان لإطلاق القول بنقد المنطق والفلسفة وعلم الكلام بدون تفصيل دور في تراجع دور العقل في وتهميشه في التصدي لهذه الفتنة؟!

لقد كانت هذه مجرد أسئلة أرجو أن تثير العقل والفكر في إعادة ترتيب الأوراق بين يدي معالجة هذه الفتنة والله من وراء القصد.

(42) سورة الإسراء، من الآية [36].